الندوة العالمية حول الوراثة والتكاثر البشري

واستعراض رؤية الأديان السماوية ووجهة النظر العلمانية

أ.د. محمد الهواري

يمر العالم اليوم بثورة علمية هائلة في شتى العلوم التطبيقية والتكنولوجيا ، وهو يشق طريقه في هذا المجال بشغف ونهم ويواصل ابتكاراته واكتشافاته بصورة مذهلة ، لكنه في هذا الزخم من التقدم الهائل والإنجازات العظيمة والمكتسبات العلمية المتسارعة ، لم يعد في الغالب يلتفت إلى قيم وأخلاق ومبادئ سامية في نطاق الأبحاث والتجريب والتطبيق .

وقد شهد النصف الأخير من القرن العشرين تطوراً هائلاً في مجال العلوم عامة والعلوم الطبية خاصة والبيولوجية بوجه خاص منها ، فظهرت آفاق جديدة وواسعة في مجال الوراثة والهندسة الوراثية والجينوم البشري والاستنساخ ، وسيشهد القرن الحادي والعشرون آفاقاً أكثر اتساعاً من التطبيقات العلمية لا سيّما على الإنسان .

وقد أثارت هذه الاكتشافات جدلاً واسعاً في الأوساط العلمية والدينية والأخلاقية بين مؤيد لها جميعاً وبين رافض لبعض منها ومتحفّظ حَذِر ومتحيّر .

وانطلاقاً من الحرص على ضرورة دراسة مثل هذه المستجدات للتعرّف على آراء العلماء المتخصصين في هذه المجالات المستحدثة ، وتعريف العلماء من كل الأديان والمعتقدات بها ، وإسماع وجهات نظر كل فريق منهم إلى نظرائهم في الفِرَق الأخرى ، بُغَية الوصول إلى صورة صحيحة للمسائل المستجدة في كل فرع من فروع هذه العلوم ، فقد دعت المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالتعاون مع المكتب الإقليمي لشرق المتوسط لمنظمة الصحة العالمية ، ومع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ومع المجلس الدولي لمنظمات العلوم الطبية ، لعقد ندوة عالمية يدعى لها نخبة من أتباع الأديان السماوية ، ومن الفلاسفة والعلمانيين ، لمناقشة جملة من هذه المواضيع تحت عنوان : " الوراثة والتكاثر البشري وانعكاساتها ، رؤية الأديان السماوية ووجهات النظر العلمانية ".

وتمّ بحمد الله وتوفيقه ، عقد هذه الندوة بالقاهرة في الفترة ما بين ٧ إلى ١٠ المحرم ١٤٢٧ هـ الموافق لـ ٦ إلى ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٦ م في قاعة الكويت بمقر المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية ، وشارك في اللقاء نخبة من العلماء الأعلام المشهورين في التخصصات المختلفة من علماء البلدان الإسلامية ، وعلماء الأديان السماوية ، وغيرهم من فلاسفة واجتماعيين وعلماء نفس وسياسيين ومن أصحاب القرار بلغ عددهم ما يقارب (١٥٠) مشاركاً ، ومثّل الأستاذ الدكتور محمد الهواري المركز الإسلامي في آخن/ألمانيا في هذه الندوة .

وتدارست الندوة المواضيع المختلفة وانعكاساتها على الإنسان من حيث هو إنسان ، وآثارها المختلفة من الجوانب المادية والاقتصادية وتبعاتها على الأجيال القادمة ، وما يتمخض عن ذلك كله من مشكلات تلقي بظلالها على المجتمعات الإنسانية في أنحاء المعمورة .

وقد اشتملت الندوة على المحاور التالية :

المحور الأول : الإنسانية والخلق/العالِم على الفطرة :

وقد استهدف هذا المحورُ ، البحثَ عن إجابات شافية للموضوعات التالية :

١- وجهة نظر المعتقدات الدينية والعلمانية والفلسفية نحو علاقة الإنسان بسائر المخلوقات ، وما هي الحدود التي ينبغي أن يقف التدخّل البشري عندها ، في ما يعتقد أنه تعديل أو تحسين للمخلوقات من حوله ، وأيّ الجوانب البيولوجية يمكن تعديلها ، وأي منها يُنظر إليه على أنه تدخّل غير منتهك لحرمتها .

٢- نظرة العقائد المختلفة إلى مكانة الإنسان ، ومناقشة احتمال تغيّرها إذا أصبح تبديل الطبيعة البشرية أمراً ممكناً ، وهل للإنسان مكانة مختلفة عن بقية المخلوقات ، وهل يجب حماية البشرية على نحو خاص .

٣- أحاطت الأديان السماوية والمبادئ الأخلاقية ، الجنينَ برعاية خاصة ، فما حدود مكانة الإنسان في المراحل الأولى والأخيرة للجنين ؟

٤- مفهوم الكرامة الإنسانية مفهومٌ رائع حرصت الأديان السماوية والمذاهب الفلسفية على إبرازه . فما هي الكرامة التي يراها الباحثون من الثقافات المختلفة ، وإلى أيّ مدى سوف تؤثر المعالجة التكنولوجية البارعة ، بما فيها انتقاء وتصميم مواصفات الأجنّة ، على كرامة الإنسان ومكانته ؟

٥- النظرةُ إلى العلم والتكنولوجيا في الثقافات المختلفة ، وهل هناك حقاً بعض المجالات التي يُفضل عدم الخوض فيها ؟ وإذا كان لذلك نصيب من الصحة فما هي هذه المجالات ؟ وهل هناك اتجاه يميل للتحفظ وآخر ليبرالي يميل للانطلاق مع العصر والتحرّر ؟ أم أن القضية برمّتها تتعلق بالمنهجية ومدى صرامتها ووضوحها ؟

٦- في مجال استخدام التكنولوجيا الجينية من أجل العلاج الذي يؤمل منه استعادة الصحة أو الوعي ، والعلاج الذي يؤمل منه الارتقاء بقدرات الأداء إلى درجة تفوق المتوسط قليلاً أو كثيراً ، أو الوصول إلى مجموعة من القدرات الجديدة ، تفاوتت الرؤى والاجتهادات فكان من الأجدى إثارتها ومعرفة موقف كل فريق .

المحور الثاني : الجينات وتكنولوجيا التكاثر ، والأسرة ، والإجابة على التساؤلات التالية :

١- لقد أصبحت التكنولوجيا الإيجابية جزءاً من التطبيقات اليومية الحياتية ، فهل سيؤدي ذلك إلى انفصام بين النشاط الجنسي وبين الإنجاب ، وكيف يؤثر ذلك على الأسرة والأطفال ؟

٢- الأطفال منحة من الله عزّ وجلّ ، فهل يحق للوالدَيْن التدخل في تكوين طبيعتهم وخصائصهم ؟

٣- تغيّرت نظرة الأطباء إلى الإنجاب والعقم في أيامنا الحاضرة ، وهل على الزوجين الذين لم يرزقوا أطفالاً من حرج إذا قررا استخدام التكنولوجيا الحديثة للإنجاب ؟ وما هي حدود الاستخدام الملائم لهذه التكنولوجيا ؟ وإلى أي مدى يغيّر استخدام التكنولوجا الإنجابية من العلاقة الأصيلة بين الوالدين والأبناء ؟

٤- الاختبارات الجينية قبل الإنجاب وبعده من الأساليب المستحدثة ، فهل هناك من حرج على الوالدين في استخدام الاختبارات الجينية قبل الإنجاب لاختيار طفل بمواصفات معيّنة ؟ وهل يمثل ذلك صورة من صور التمييز ضد المَعُوقين لأنه يعتبر ضمنياً أن حياتهم أقل قيمة ؟ وما هو القول الفصل في استخدام الاختبارات الجينية في مراحل الحمل الأولى أو الأخيرة للتعرف على الجنين الذي يُحتَمل جداً أن يُولد مصاباً بضعف شديد أو عاهة مستديمة ، أو في استخدام هذه الاختبارات لانتقاء طفل يتمتع بخصائص مرغوب فيها كالذكورة أو الأنوثة ؟ وما هي الحدود الفاصلة بين حالات الإعاقة الشديدة والخفيفة ؟ وهل يجوز انتقاء أطفال باستخدام تقنيات التشخيص الوراثي قبل انغراس البيضة الملقحة من متبرعين بالأنسجة ؟

٥- التعليم والتأديب جزءٌ من الممارسة اليومية من الآباء لأطفالهم ، فهل هناك فرق أصيل من وجهة النظر الأخلاقية بين استخدام التعليم والتأديب الأبوي لتعديل وتنمية قدرات الطفل ، وبين استخدام التكنولوجيا الجينية في تحقيق نفس الغايات ؟ وهل للوالدين الحقّ في إجراء الاختبارات للتأكد من وجود الاضطرابات الجينية التي تتأخر في الظهور حتى وقت البلوغ ؟

٦- لقد شكّلت تكنولوجيا الاستنساخ صدمة علمية وأخلاقية ، وقوبلت بمواقف مختلفة بين رافض ومتحفظ ومؤيد ، فهل سيؤثر الاستنساخ الإنجابي على الأسرة ؟

المحور الثالث : الآثار الاجتماعية للتكنولوجيا الجينية والإنجابية :

١- ملامح المجتمع الصالح ، والعلاقة المثلى بين الأفراد والمجتمع ، ومواطن اختلاف الرؤية الدينية عن الرؤية العلمانية لمجتمع يتّصف أفراده بالتفكير المنطقي ويهتم بمصالح المجتمع وأفراده ، ويتسم بالاستقلال واحترام الحرية الشخصية ؟ وإلى أي مدى تكون قضايا العدالة الاجتماعية ذات شأن في الاعتبار الأخلاقي ؟

٢- لتكنولوجيا الجينات والتكاثر آثار على العلاقة بين الأفراد والمجتمع ، فهل صحيح أنها تشجّع على قدر أكبر من المنافسة غير الكريمة بين الأفراد ، وبالتالي على قدر أكبر من الظلم ، وقدر أقل من التضامن الاجتماعي ؟

٣- هل اختيارُ جنس الأطفَال ومواصفاتهم يَمَسّ بالكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان ؟

٤- لا تفرِّق الأديان والمذاهب الفلسفية الأخلاقية بين الناس على أساس الجنس أو اللون أو المعتقد ، ولا على أساس ما يحملونه من جينات ، فما مدى انعكاس ذلك على فرص العمل والتأمين ؟

٥- عدالةُ توزيع الموارد أمرٌ بالغ الأهمية في الأديان والفلسفات المختلفة ، فهل لنقص الموارد دورٌ في إحداث نوع من التفرقة في تقديم الخدمات للفئات المختلفة ؟

٦- لعلوم الوراثة وتكنولوجيا الإنجاب فوائد كبرى إذا أحسن استخدامها ، ولكن المشكلة تكمن في إساءة الاستعمال ، كأن تظهر صورة جديدة من صور تحسين السلالة البشرية ، يتم فيها تخليص المجتمع تدريجياً من البشر المُعوقين وغيرهم ممن يتمتعون بنصيب أقل من القدرات التي تحددها المجتمع ، فكيف نحتاط لمواجهة مثل هذا الاحتمال ؟

المحور الرابع: كيف وأين نضع الحدود الفاصلة ؟

لقد دخلت التكنولوجيا حياة الإنسان وفرضت عليه أنماطاً لم يعرفها من قبل ، مما استدعى أن تعمل الندوة على تحديد الحدود الفاصلة التي يجب عدم تجاوزها في تطوير واستخدام التكنولوجيا ، ولا سيّما في المجالات الآتية :

١- أبحاث الأجنة وتكنولوجيا الخلايا الجذعية .
٢- التشخيص الجيني لزراعة الأعضاء .
٣- الاستنساخ بقصد الإنجاب .
٤- العلاج بالجينات وبالهندسة الوراثية للخلايا الجنسية .
٥- التخصيب المجهري (أطفال الأنابيب) .

هذا وقد دارت المناقشات على مدى أربعة أيام أدلى فيها كل فريق برأيه ، في جو تسوده الحرية والأخوة والصداقة والاحترام المتبادل ، والحرص الصادق على تحرّي الحقيقة وتقبُّلها .

و لم يكن خافياً منذ البداية أن الأمر على جانب كبير من الخطورة ، لأنه يمسّ " **الإنسان** " أشرفَ المخلوقات في الأرض ويعرضه لمختلف التجارب التي لا تعرف مغبتها .

وحرصاً من المساهمين في الندوة على تجنّب الوقوع في أي تجاوزات على الإنسان عن قصد أو غير قصد في أيدي بعض النفوس الضعيفة الواقعة تحت شهوة حب الاستطلاع واستجلاء الغامض ، ولو كان ذلك على حساب إنسانية الإنسان ، وتأكيداً على كرامة الإنسان وقدسية حياته ، وإحاطته بسياج الأمن والأمان ، وتوفير حياة هانئة له لا تخلو من الحد الأدنى من متطلبات الحياة الكريمة التي تليق بإنسانيته ؛ رأت الندوة التوصية بعدم البدء بالتجارب في بحوث الوراثة والهندسة الوراثية والتكنولوجيا الإنجابية على الإنسان ، إلا بعد إحاطة هذه التجارب بالضمانات الكافية ، وأخذ الاحتياطات اللازمة وفقاً للمواثيق العالمية والدولية ، ومنها الميثاق العالمي الإسلامي للأخلاقيات الطبية والصحية التي أصدرته المنظمة في عام ٢٠٠٤ م .

وتأكيداً على التضامن العالمي لمواجهة خطر سوء استخدام تلك الإنجازات وضرورة إصدار تشريعات عالمية ملزمة للجميع تتوافق مع مبادئ الأديان السماوية وحقوق الإنسان ضماناً لإنقاذ الشعوب الفقيرة من الاستغلال بجعلها حقلاً للتجارب .

فقد اتفق المجتمعون على إصدار إعلان المبادئ الآتية :

إعلان مبادئ

١- الإنسان مخلوق مكرّم . والعبث بمكونات الإنسان وإخضاعه لتجارب الهندسة الوراثية بلا هدف مشروع ، أمرٌ يتنافى مع الكرامة الإنسانية .

٢- لا يفرض الدين أيّ حجر على العقل الإنساني في مجال البحث العلمي البحْت ، ولكن حصيلة هذا البحث ونتائجه لا يجوز أن تنتقل تلقائياً إلى مجال التطبيقات العملية إلا بعد أن تُعرض على الضوابط الدينية .

٣- إن الحرص على الصحة والتوقي من المرض مما يوصي به الدين ، والتداوي في أصله مطلوب ديناً ، لا فرقَ في ذلك بين مرض مكتسب ومرض وراثي ، ولا يتعارض ذلك مع فضيلة الصبر واحتساب الأجر والتوكل على الله .

٤- لكل إنسان الحقُّ في أن تحترم كرامته وحقوقه أيّاً كانت سماته الجينية أو صفاته الوراثية .

٥- لا يجوز إجراء أي بحث أو القيام بأي معالجة أو تشخيص على جينوم Genome شخص ما ، إلا بعد إجراء تقييم صارم ومسبَق ، للأخطار المحتملة المرتبطة بهذه الأنشطة ، مع الالتزام بالضوابط الدينية والأخلاقية في هذا الشأن ، والحصول على القبول المسبق والحر والواعي من الشخص المعني . وفي حالة عدم أهليته للإعراب عن هذا القبول ، يجب الحصول على القبول أو الإذن من وليّه ، مع الحرص على المصلحة العليا للشخص المعني .

٦- ينبغي احترام حق كل شخص في أن يقرّر ما إذا كان يريد أو لا يريد أن يحاط علماً بنتائج أي فحص وراثي يُجرى له ، أو بعواقبه .

٧- تُحاط بالسرية الكاملة كافة التشخيصات الجينية المعدّة أو المحفوظة لأغراض البحث أو لأي غرض آخر ، ولا تُفشى إلا في الحالات المبينة في مواثيق الأخلاقيات الطبية حول سرّ المهنة .

٨- لا يجوز أن يعرّض أي شخص ، لأي شكل من أشكال التمييز القائم على صفاته الوراثية ، والذي يكون غرضه أو نتيجته النّيْل من حقوقه وحرياته الأساسية أو المساس بكرامته الإنسانية .

٩- لا يجوز لأي بحوث تتعلق بالجينوم البشري ، أو لأيٍّ من تطبيقات هذه البحوث ، ولا سيما في مجالات البيولوجيا وعلم الوراثة والطب ، أن يخرق الالتزام بالضوابط الدينية واحترام حقوق الإنسان ، ولا أن ينتقص من الحريات الأساسية والكرامة الإنسانية لأيّ فرد أو مجموعة أفراد .

١٠- يجوز استعمال الهندسة الوراثية في اتقاء المرض أو علاجه أو تخفيف أذاه ، وكذلك إيداع جين من كائن غير بشري في كائنٍ غير بشري آخر للحصول على كميات كبيرة من إفراز هذا الجين لاستعماله دواءً لبعض الأمراض . وينبغي أن تتولى الدولة توفير مثل هذه الخدمات لرعاياها المحتاجين لها من ذوي الدخل المتواضع نظراً لارتفاع تكاليف إنتاجها .

١١- لا يجوز استعمال الهندسة الوراثية في الأغراض الشريرة والعدوانية ، أو في تخطّي الحاجز الجيني بين أجناس مختلفة من المخلوقات ، قصدَ تخليق كائنات مختلطةِ الخلقة ، بدافع التسلية أو إشباع حب الاستطلاع العلمي .

١٢- لا يجوز استخدام الهندسة الوراثية سياسة لتبديل البنية الجينية فيما يسمى بتحسين السلالة البشرية Eugenics ، فأيُّ محاولة للعبث الجيني بشخصية الإنسان ، أو إهدار أهليته للمسؤولية الفردية أمرٌ محظور دينا .

١٣- لا يجوز أن يكون التقدم العلمي مجالاً للاحتكار ، ولا أن يكون الحصول على الربح الهدف الأكبر لهذه الأنشطة العلمية .

١٤- لا يجوز القيام بأي إجراء تكنولوجي في مجال الإنجاب البشري أو الهندسة الوراثية إذا كان ينطوي على ضرر محقق أو مرجّح ، أما إذا كان احتمال الضرر محدوداً فالأولى تحاشيه ، ما لم تتوافر المسوغات الكافية .

١٥- لا حرجَ من استخدام الهندسة الوراثية في حقل الزراعة وتربية الحيوان ، شريطة اتخاذ أقصى الحيطة لاتقاء احتمالات حدوث أضرار على المدى البعيد ، تضرّ بالإنسان أو الحيوان أو النبات أو البيئة .

من واجب الشركات والمصانع المنتجة للمواد الغذائية ، ذات المصدر الحيواني أو النباتي ، أن تبين للجمهور في ما يعرض للبيع : ما هو محضّرٌ بالهندسة الوراثية ، وما هو طبيعي مائة بالمائة ، ليكون استعمال المستهلكين لها عن بيّنة ، ومن واجب الدول التحلي باليقظة العلمية التامة في رصد تلك النتائج ، والأخذ في وقتٍ معاً بتوصيات وقرارات منظمة الأغذية والأدوية الأمريكية ، ومنظمة الصحة العالمية ، ومنظمة الأغذية العالمية في هذا الخصوص .